

مع ناشر أمريكي يهودى

فى إحدى سفرياتى إلى لندن منذ عدة سنوات لحضور معرض لندن للكتاب ، دعانى ناشر إنجليزى للعشاء ، وأخبرنى أنه سيكون معنا ناشر أمريكى وزوجته .

ذهبت وزوجتى إلى المطعم الأنيق فى إحدى ضواحي لندن ، وتقابلنا جميعاً وبدأنا الترتبة فى أمور النشر والكتاب فى إنجلترا وأمريكا والشرق الأوسط . بعد قليل تبين أن الأمريكى يهودى ، وبدأ يتحدث عن مشاكل الشرق الأوسط وعلاقة إسرائيل بدول المنطقة * . ثم اقترح لحل مشكلة الفلسطينيين أن يتم توزيعهم على البلاد العربية ، فهى كثيرة ومساحتها شاسعة ويمكن استيعاب الفلسطينيين فيها . فاقترحت عليه فى المقابل أن يتم توزيع اليهود على الولايات الأمريكية ، فهى قارة وحدها ، وكثافتها السكانية منخفضة ، وهناك أيضاً أستراليا وكندا والأولى عدد سكانها أقل قليلاً من القاهرة ، وهى قارة أيضاً وحدها ، وكندا عدد سكانها أكبر قليلاً من القاهرة ، بينما مساحتها أكبر من أى دولة فى العالم ، أو يعود اليهود الذين هاجروا لفلسطين كل إلى بلده الأصيلى .

قال : كيف تطلب أن نخرج اليهود من إسرائيل وقد عمروا الأراضى وأحسنوا استغلالها ، وأداؤهم الاقتصادى أفضل من الفلسطينيين ؟

قلت : هذا ما تروجه الدعاية اليهودية دائماً .. ففلسطين كانت مزرعة الشرق الأوسط ، أرضها خصبة وشهرتها قديمة فى زراعة الزيتون - من أيام المسيح عليه السلام - والحمضيات والفواكه وغيرها ، وكانت موانئها لا تقل أهمية عن الإسكندرية وپور سعيد وبيروت واللاذقية .

* كان ذلك قبل اتفاق غزة - أريحا بسنوات .

ولو افترضنا جدلاً أن الأداء الاقتصادي لإسرائيل أفضل من الأداء الفلسطيني * ، فهل هذا يعطيهم الحق في اغتصاب أرضهم ؟ فإذا كان ذلك كذلك فيحق للألمان واليابانيين والسويسريين والسويديين اغتصاب أراضي العالم كله .. بما في ذلك أراضي أمريكا ، بل لن نتوقف دول العالم عن اغتصاب أراضي بعضها البعض ، فالأداء الاقتصادي يتغير ارتفاعاً وانخفاضاً بصفة مستمرة ، فيتحول العالم - حسب اقتراحك - لاغتصابات متتالية لا تنحصر في مكان ولا زمان . ثم من الذي له صلاحية تحديد الأهداف الاقتصادية لكل بلد وقياس أدائه ؟ ثم على أي أساس تقرر أن الأداء الاقتصادي هو أهم ما في الحياة ؟ ألم تقرأ في الكتاب المقدس في عهده القديم والجديد : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان !

ياسيدى الفاضل لقد أشعلت إسرائيل ٤ حروب في المنطقة في أقل من خمسين عاماً ، نكبت أهل المنطقة في الدم والنفس والمال ، وأضافت لمشكلات العالم مشكلة أصبحت مستعصية الحل على كل الأطراف .

هنا تدخلت زوجته قائلة : الأفضل لكم أن تسالموا إسرائيل ، فمشاكلكم كثيرة جداً ، يكفي أنكم قد لا تجدون الماء قريباً جداً ** ، ثم أنكم تزعمون أنكم - العرب - متحذون ، في الوقت الذي لا تنقطع بينكم الحروب .

أجبت : لست أدري كيف لانجد الماء في مصر ، هل سيتوقف النيل عن الجريان ؟ أم ستقوم قوة جهنمية بتغيير مساره عن مصر ؟ أما إننا نحارب بعضها البعض ، فهذه حقيقة مؤلمة ومخزية ، وقد مرت بها أوروبا قرون طويلة ، ولم تنقطع حروبها إلا في منتصف القرن الحالى ، فأمل أن نتوقف نحن أيضاً عن ذلك قريباً . أما أمريكا ، ففي عمرها القصير جداً ، فقد خاضت حروب لا أول لها ولا آخر ، مع الإنجليز ومع الفرنسيين ، ومع الإسبان ، ومع المكسيك والفلبيين ، ثم حربين عالميتين ، ثم كوريا وبيتنام ، وفي وسط ذلك حرب أهلية ! . وأنا لا أنفى مسئوليتنا جميعاً - شعوباً وحكاماً - عن تلك الحروب ، ولكن لا تنسى أنت قاعدتكم الذهبية التي لم تتخلوا

* لنا عودة في آخر الكتاب عن الاقتصاد الإسرائيلي .

** كانت مشاكل جنوب السودان في أوجها بسبب انتصارات قوات جارانج التي تعمل على فصل جنوب السودان ، الأمر الذي بدأه الإنجليز منذ قرن !

عنها قيد أنملة - إلا فيما تدعونه عكس ذلك ، مثل اهتمامكم بحقوق الإنسان وحقوق الأقليات ، وهى فى الواقع إثارة الأقليات - قاعدة فرق تسد * ، وأذكرك - فى المقابل - بما كتبه المؤرخ والفيلسوف الأمريكى ول ديورانت فى « عصر الإيمان » دار نشر سيمون وشوستر (سنة ١٩٥٤ ص ٢١٨) إضطر الحاكم الإسلامى لإنطاكيا فى القرن التاسع إلى تعيين حرس خاص مهمته حفظ الطوائف المسيحية من ذبح بعضها فى الكنيسة .

وفى « موسوعة التاريخ الدبلوماسى للمغرب » للمؤرخ المغربى الدكتور التازى وثيقة تاريخية ترجع للقرن السابع الهجرى ، رسالة ملك المغرب إلى ملكى إسبانيا وفرنسا ، يدعوهما لتبذ الحرب ليعيشا فى سلام ، ويرد لملك إسبانيا تاجه الذى عرضه عليه مقابل أن يحارب معه فرنسا .

ولكننى أكرر أننا مسئولون عن الحرب التى بيننا شعبياً وحكاماً ، وأمل سرعة انتهائها .

قال جوربون كانه يريد تغيير الحديث : أنا أذهب نهاية كل عام لإسرائيل لتوزيع كتبى هناك ، وسوف أتى لمصر فى زيارتى القادمة .

التقطت زوجته الحديث وقالت أنها تحلم بالسفر لمصر ومشاهدة الآثار والاستمتاع بدفء مصر ودفء شعبها .

لم نتقابل ثانية لعدة أعوام ، ثم رأيت مؤخراً فى معرض فرانكفورت للكتاب ، فسألته : لماذا لم أراك فى مصر ؟ فأجاب انقطعت عن زيارة الشرق الأوسط ، فلقد نصبوا على فى إسرائيل !

* جاء فى مذكرات الدكتور الزيات وزير الخارجية الأسبق ، إن نيكسون بعد أن قابل خمسة من وزراء الخارجية العرب خلال حرب ٧٣ ، وهما بالانصراف ، استبقى وزير الخارجية السعودى السقاف ، ولم يقل له شيئاً أكثر من السؤال عن صحة الملك فيصل ، فتعجب الوزير السعودى لذلك ، وقصر الحادث على الدكتور الزيات الذى أجابه ، انفراد بك ليظن الآخرون الظنون !

وقبل ذلك جاء فى وثيقة بانر (١٩٠٧) رئيس الحزب الليبرالى فى إنجلترا فصل الجناح الشرقى الآسيوى عن الجناح الغربى الألفريقى للأمة العربية وإثارة كل ألوان النزاع والشقاق فى جسمها حتى لا يقوم للعرب قائمة ، تلك القائمة التى تحمل من المفاجآت ما لا يتحمله التاريخ الغربى مرتين .